

الدرس العشرون: أعمال العشر الأواخر من رمضان

تكلمنا مع حضراتكم في الدرس السابق عن فضل العشر الأواخر والاجتهاد فيها؛ وإذا أردتم النجاح والفلاح والفوز بهذا الشهر الكريم؛ ولا سيما العشر الأواخر منه؛ فإني أقدم لكم برنامجاً إيمانياً يشتمل على أعمال فاضلة في هذه العشر؛ حتى نلحق بقوافل الزاهدين العابدين؛ وتتمثل هذه الأعمال فيما يلي:

أولاً: قيام لياليها: اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم كما في عنصرنا السابق؛ وينبغي إيقاظ الأهل والأولاد لاغتنام هذه الليالي المباركة. قال سفيان الثوري رحمه الله: أحب إليّ إذا دخل العشر الأواخر أن يتهدج بالليل، ويجتهد فيه، ويُنهض أهله وولده إلى الصلاة إن أطاقوا ذلك. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيَّقُظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ، نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، وَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ، وَأَيَّقُظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبِي، نَضَحَتْ فِي وَجْهِ الْمَاءِ." (أبوداود).

وفي الموطأ أن عمر بن الخطاب كان يصلي من الليل ما شاء الله أن يصلي، حتى إذا كان نصف الليل أيقظ أهله للصلاة، يقول لهم: الصلاة الصلاة، ويتلو هذه الآية: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا} [طه:132].

إن هذه العناية بأمر الزوجة والأهل والأولاد تجعل من البيت المسلم يعيش في روحانية رمضان هذا الشهر الكريم؛ عندما يقبل الأب والأم والبنين والبنات على الصلاة والعبادة والذكر وقراءة القرآن، ولتحفزهم على ذلك الخير؛ فمن دعا إلى هدى كان له من الخير والأجر مثل أجر من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً.

ثانياً: الاجتهاد في نهارها: فيخصّ جميع زمان العشر الأواخر من رمضان ليله ونهاره بمزيد من الاجتهاد والعبادة. " قال الشافعي رحمه الله: أستحبُّ أن يكون اجتهاده في نهارها كاجتهاده في ليلها، وهذا يقتضي استحباب الاجتهاد في جميع زمان العشر الأواخر، ليله ونهاره، والله أعلم." (لطائف المعارف).

ثالثاً: الاعتكاف: فهو من أعظم العبادات في هذه العشر؛ وقد كان صلى الله عليه وسلم حريصاً على سنة الاعتكاف في رمضان كل عام؛ وقد استن بهذه السنة أزواجه والصالحون من بعده صلى الله عليه وسلم؛ فعن عائشة رضي الله عنها: " أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَّخِرَ مِنْ رَمَضَانَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ؛ ثُمَّ اعْتَكَفَ أَزْوَاجُهُ مِنْ بَعْدِهِ " (متفق عليه)؛ وفي العام الذي لم يعكف فيه النبي صلى الله عليه وسلم لكثرة الاختلاط قضاءه في شوال؛ وهذا يدل على أهمية الاعتكاف وفضله؛ فعن عائشة رضي الله عنها: " أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَادَ أَنْ يَعْتَكِفَ؛ فَلَمَّا انصَرَفَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَعْتَكِفَ؛ إِذَا أَحْيِيَةٌ؛ خِبَاءٌ عَائِشَةَ؛ وَخِبَاءٌ حَفْصَةَ؛ وَخِبَاءٌ زَيْنَبَ؛ فَقَالَ: الْبِرُّ تَقُولُونَ بَيْنَ؟! ثُمَّ انصَرَفَ فَلَمْ يَعْتَكِفْ؛ حَتَّى اعْتَكَفَ عَشْرًا مِنْ شَوَّالٍ " (متفق عليه).

يقول الشيخ محمد فؤاد عبدالباقي تعليقاً على سبب تركه صلى الله عليه وسلم الاعتكاف ثم اعتكافه في شوال: " لأنه صلى الله عليه وسلم رآهن عنده في المسجد وهو في المسجد؛ فصار كأنه في منزله بحضوره مع أزواجه؛ وذهب المهم من مقصود الاعتكاف وهو التخلي عن الأزواج ومتعلقات الدنيا وشبه ذلك".

لذلك عندما تؤدي سنة الاعتكاف أخي الصائم فإنك تحي سنة نبوية كريمة مهجورة منذ أزمنة طويلة؛ فعن الإمام الزهري رضي الله عنه قال: "عجبا للمسلمين! تركوا الاعتكاف مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما تركه منذ قدم المدينة حتى قبضه الله عز وجل".

إن الاعتكاف فيه تسليم المعتكف نفسه بالكلية إلى عبادة الله تعالى طلب الزلفى، وإبعاد النفس من شغل الدنيا التي هي مانعة عما يطلبه العبد من القربى، وفيه استغراق المعتكف أوقاته في الصلاة، لأن المقصد الأصلي من شرعية الاعتكاف انتظار الصلاة في الجماعات، وتشبيه المعتكف نفسه بالملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ويسبحون الليل والنهار لا يفترون.

والاعتكاف المستحب ليس له وقت محدد، ولك أن تجمع بين عملك واعتكافك؛ فيكون اعتكافك ليلاً وعملك نهاراً؛ فهو يتحقق بالمكث في المسجد مع نية الاعتكاف طال الوقت أم قصر حتى ولو لحظة؛ ويثاب ما بقي في المسجد، فإذا خرج منه ثم عاد إليه جدد النية إن قصد الاعتكاف، فعن يعلى بن أمية قال: إني لأمكث في المسجد ساعة ما أمكث إلا لأعتكف. (فقه السنة للشيخ سيد سابق).

ويكفي المعتكف أنه ترك الدنيا وشهواتها وأقبل على الله بقلبه وجوارحه؛ واقفا على بابه متعلقاً بأعبائه؛ يدعوه ويبتهل إليه راجياً رحمته ورضوانه. قال عطاء - رحمه الله -: "مثل المعتكف كرجل له حاجة إلى عظيم؛ فجلس على بابه ويقول لا أبرح حتى تقضي حاجتي؛ وكذلك المعتكف يجلس في بيت الله ويقول: لا أبرح حتى يُغفر لي".

رابعاً: قراءة القرآن: فعليك أن تكثر من قراءة القرآن الكريم ليلاً ونهاراً، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: "أن جبريل عليه السلام كان يلقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن." (البخاري ومسلم)، وهكذا كان السلف الصالح يقرؤون القرآن في رمضان في الصلاة وغيرها، وكان لأبي حنيفة والشافعي في رمضان ستون ختمة في غير الصلاة، وكان بعضهم يختم القرآن كل ليلة من ليالي العشر، وربما أشكل على بعضهم ثبوت النهي عن قراءة القرآن الكريم في أقل من ثلاث، "وإنما ورد النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث على المداومة على ذلك، فأما في الأوقات المفضلة كشهر رمضان خصوصاً الليالي التي يطلب فيها ليلة القدر، أو في الأماكن المفضلة كمكة لمن دخلها من غير أهلها، فيستحب الإكثار فيها من تلاوة القرآن، اغتناماً للزمان والمكان، وهو قول أحمد وإسحاق وغيرهما من الأئمة، وعليه يدل عمل غيرهم". (لطائف المعارف) ١هـ.

وكان قتادة - رحمه الله - يختم القرآن في كل سبع ليال مرة، فإذا دخل رمضان ختم في كل ثلاث ليال مرة، فإذا دخل العشر ختم في كل ليلة مرة.

خامساً: كثرة الدعاء: فللصائم عند فطره دعوة لا ترد، قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ لِلصَّائِمِ عِنْدَ فِطْرِهِ لِدَعْوَةً مَا تُرَدُّ» [ابن ماجة والطبراني]. وكان عبد الله بن عمرو بن العاص إذا أفطر يقول: " اللهم إني أسألك - برحمتك التي وسعت كل شئ - أن تغفر لي ".

وكثير منا أيضاً يخطئ حينما يستبطن الإجابة؛ وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك: فعن أبي هريرة؛ عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: " لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمَ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ " قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا الْإِسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: " يَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ أَرِ يَسْتَجِيبُ لِي فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدْعُ الدُّعَاءَ " (مسلم) ؛ وليعلم هذا المسكين الذي استبطن الإجابة فترك الدعاء أنه خسر ثواباً وأجر عظيمًا عند الله؛ لأن الله توعده بالإجابة عاجلاً أو آجلاً ؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " ما من مسلمٍ يدعو الله عزَّ وجلَّ بدعوةٍ ليس فيها إثمٌ ، ولا قطيعةٌ رَحِمَ ، إِلَّا أعطاهُ اللهُ بها إحدى ثلاثٍ خصالٍ : إمَّا أن يعجِّلَ له دعوتهُ ، وإمَّا أن يدخِرَها له في الآخرةِ ، وإمَّا أن يصرفَ عنه من السوءِ مثلها . قالوا : إذا نُكِّثُ ، قال : اللهُ أَكْثَرُ " [أحمد والحاكم وصححه] .

فانظر إلى الصحابة قالوا : إذا نُكِّثُ ؛ لأن الإجابة مضمونة في إحدى هذه الثلاث طالما التزمت بشروط الدعاء وآدابه؛ فإما أن يعجل الله لك الدعوة؛ أو يصرف عنك مصيبة أو نازلة كانت ستنزول بك رفعها الدعاء؛ أو يدخرها لك في الآخرة؛ يقول: عبدي دعوتني في يوم كذا في ساعة كذا بدعوة كذا فاذهب إلى قصر كذا في الجنة؛ وقتها يقول العبد: يارب ليتك لم تستجب لي ولا دعوة في الدنيا!!! فلنكثر من الدعاء عند الإفطار فالدعاء مجاب؛ والله أكثر وأكثر!! لذلك قال يحيى بن أبي كثير: أفضل العبادة كلها الدعاء. وروى أبو معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه: أنه كان يواظب على حزيه من الدعاء كما يواظب على حزيه من القرآن.

سادساً: تحري ليلة القدر: فقد كان من هديه صلى الله عليه وسلم في هذه العشر الأخيرة من رمضان أنه يتحرى ليلة القدر، وقال في ذلك: " مَنْ كَانَ مُتَحَرِّبَهَا فَلْيَتَحَرَّهَا مِنَ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ . " (البخاري)؛ فإيا سعادة من نال بركتها وحظي بخيرها، ويستحب الإكثار من الدعاء فيها، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيُّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ الْقَدْرِ مَا أَقُولُ فِيهَا قَالَ: " قُولِي اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي " . (الترمذي وابن ماجة) .

سابعاً: الإكثار من الجود: فشهْر رمضان يمتاز بأنه شهر المواساة والتراحم والجود والكرم والتكافل بين المسلمين، ولهذا السبب نفسه " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جَبْرَيْلُ ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ " (رواه البخاري) .

قال ابن رجب - رحمه الله تعالى - : " وكان جوده - صلى الله عليه وسلم - كله لله - عز وجل - وفي ابتغاء مرضاته؛ فإنه كان يبذل المال إما لفقير أو محتاج، أو ينفقه في سبيل الله، أو يتألف به على الإسلام من يقوى الإسلام بإسلامه...

وكان يؤثر على نفسه وأهله وأولاده، فيعطي عطاءً يعجز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر، ويعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشهر والشهران لا يُوقد في بيته نار، وربما ربط على بطنه الحجر من الجوع.

والجود معناه الاستكثار من سائر أنواع الخير، كالإنفاق، وحسن الخلق، وبر الوالدين، وبذل الخير، ونشر العلم، والجهاد في سبيله، وقضاء حوائج الناس، وتحمل أثقالهم، ومناصرة المستضعفين ودعمهم؛ وكافة صور الخير والبر والإحسان!!.

فعلیکم بالجد والاجتهاد في هذه العشر بالقيام وقراءة القرآن؛ والذكر والدعاء والصدقات وسائر القربات؛ فهذه فرصة لن تعوض ولن تعود؛ وقبل أن نندم ولا ينفع الندم!! { حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ؛ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ } (المؤمنون: 99 ؛ 100)؛ وقد وقف الحسن البصري على جنازة رجلٍ فقال لصاحب له يعظه: تُرى هذا الميت لو رجع إلى الدنيا ماذا يصنع؟! قال: يكثر من الطاعات؛ قال له الحسن: قد فاتته فلا تفتك أنت!! أقول لكم أيها المسلمون: قد فاتت من كان قبلكم؛ والفرصة ماثلة أمامكم فماذا أنتم فاعلون!!

ولذلك شكى وبكى الصالحون والطالحون ضيقَ العمر، وبكى الأخيارُ والفجارُ انصرامَ الأوقات، فأما الأخيارُ فبكوا وندموا على أنهم ما تزودوا أكثر، وأما الفجارُ فتأسفوا على ما فعلوا في الأيام الخالية.

كتبه : خادم الدعوة الإسلامية

د / خالد بدير بدوي